فن بتهوفن وتحليل اعظم تلحيناته

اكتب هذا المقال الثاني عن بتهوفن في العشرة الايام الاولى من شهر مارس ، وصحف الغرب تواقينا ببرامج الحفلات التي يعدّها اهل الفنّ والموسيقى للاحتفاء بذكرى صاحب اليوبيل في النمسا وفرنسا والمانيا وايطاليا وفي سائر انحاء اوربا وامريكا . وليست القاهرة دون عواصم العالم اهتماماً بهذا اليوبيل . فقد اعلن في الصحف السيارة عن حفلة ستقام في دار الاوبرا تحت رعاية جلالة الملك للاحتفاء بذكرى بتهوفن مساء ٣٠ مارس الجاري تعزف فيها الحان مختارة من وضعه ، ويخصص دخلها لجمعية الاسعاف العمومية . ولاشك ان سترى عاصمتنا حفلات اخرى من هذا القبيل في الاسبوع الجامع بين اواخر مارس واوائل ابريل

وقوام هذه الحفلات طبعاً موسيقى بتهوفن . وقد يقتصر في بعض البرامج على طائفة من القطع ذات الصلة المعنوية الاساسية فيما بينها . فهذه للسوناتا ، وتلك للسمفونيا ، واخرى للتلحينات الحزينة والجنائزية ، وغيرها للاناشيد الدينية ، وغيرها لتنغيم مستخرجة من الروايات الغنائية (اوبرا) الخ

لانّ فنّ بتهوفن غنيٌّ بتنوعه وتفرّعه غناهُ بطرازه الفاخر وفكره العالي . ولم تكن وفرة النتاج والابداع لتغضّ من جودة الاتقان وطرافة الابتكار . بل هو في كلّ فرع من ذلك الفنّ ، وفي كلّ غصين من ذلك الفرع ، اهتدى الى حسّ جديد يعالجهُ ومعنىً مستحدث يشدوهُ . مع انهُ لم يكن لهُ من منهل يرتادهُ غير هوّة نفسه ورحبة ماضيه . هناك يسترقُ السمع من هاتيك الاصوات السالفة و« يلمسها » شوقهُ بمذوبة الذكرى ، ويعكف عليها يعالجها ويرعاها حتى ينال منها اقصى الاسرار ومنتهى الغايات . ويوسلها بعدُ نغوةً تترنّحُ بمرح الطفولة وسذاجة الغفلة وانس العذوبة . انما ينوح في لمزازها صوتٌ يحدّث بانّ اليوم غير الامس ، وبانّ الذكرى وليدة شوق استحال تحقيقهُ في عالم المحسوس فانطلق يستطلعُ بوادر الرجاء والامكان في عالم اسمى واشرف . على انّ ذلك الانتحاب مهذبٌ مثقفٌ يسترُ من نفسه بنفسه لا تشوّههُ المرارة ولا تقلقهُ الحدّة . فاذا تفاجئك منهُ بغتةً نفحاتٌ وفوراتٌ من الابتهاج والحبور فتحار من اي السبل تقذ الوجيب الى الانشاد . وطريقة بتهوفن هذه في إغفال جواهُ وهو في اشدّ عجيبة الفعل في النفس الموسيقية وكثيراً ما تجلب الدمع الى المآقي

لكلّ نغمةٍ عندهُ معنى ، ولكلّ نبرةٍ مساجلة ، واذا هدأت الاوتار وسكتت الآلات فسكوتهُ ملؤهُ تجيج القلوب وحفيفُ الاسرار واعلان الخفايا . ذلك ان بتهوفن العالم في اصول الفنّ ، البارع في تخريج الانغام ونسجها وتفسيرها ، يخدمهُ المفكر في معاني الحوادث وتصاريف الاقدار ، والغنيّ الذي يلفُّ الحقائق القاسية بدثار من الملاحة والرونق والبهاء ، والرجلُ المتوجّع المنفعل بمقتضيات حياتهِ وباعمال البشر ، والمتحمس العظيم للموسيقى الذي يرى مزاولتها ضرباً من طقوس العبادة . وهو الذي عرّف فنهُ التعريف التالي :

« الموسيقى «روحيّة» يفوق كلّ علم ويسمو على كل حكمة . وهي المقدمة الوحيدة المجرّدة من الجسديات والمحسوسات ، التي تمضي بنا الى ملكوت المعرفة الربانية . ذلك الملكوت المحيط بالانسان في حياتهِ هذه التي تمزّقها المقاومة والنزاع ، والذي لا يجهرُ بخفاياهُ ويكشفُ عن كنوزهِ الاّ عن طريق هذا العامل الاثيريّ الشفاف المعروف باسم الموسيقى »

***

تصانيف بتهوفن جزيلةٌ وافرة لا تتيسّر الاحاطة بها ، ويتعذّر ايراد قائمتها بالعربية لعدم وجود هذه التآليف في لغتنا ولانعدام اسماء فنية واصطلاحات موافقة لها بالتبع

ولكن يحسن الالماع إلى انّ منها الخصيص بالاوركسترة الكبرى التامة إذ تتعاون في التوقيع الآلات الوترية والآلات النحاسية جميعاً . ومنها ما هو لفُرَق اوركسترة صغيرة أو جزئية يمزف فيها الفريقان من الآلات . ومنها ما هو مفردٌ لهذه الآلات او لتلك ، وما هو للبيانو او للارغن . ومنها ما هو للموسيقى الصوتية اي الانشاد . مثل « القداس الاحتفالي » الشهير والروايات الثنائية (او پرا) والاجواق الوطنية والاناشيد الدينية والوثائية . ولعلّ الشائع من هذه الموسيقى الصوتية هو مجموعة الاغاني الست والستين الخصيصة بالبيانو والمجموعات الاخرى التسع المفردة للاغاني الاسكتلاندية والانجليزية والايرلندية والفرناوية والايطالية . وجميعها ثلاثية التلحين ، اي للانشاد الصوتي والتوقيع على البيانو والعزف على الكنجة الكبيرة (violoncelle) في آنٍ واحد

لا بدّ ان نقدة الفنّ في اوربا سيتناولون مؤلفات بتهوفن بالتحليل والبحث فنرى من ذلك فصولاً في الصحف والمجلاّت خلال الشهور التالية . غير ان الذين كتبوا عنهُ إلى اليوم اتفقوا على انهُ « تطوّر » فاجتاز ثلاث مراحل كبرى وانهُ احدث انقلاباً وتجديداً في جميع ما صنّف فتجلّى على قمة الابداع في تلحيناتهِ الاخيرة

وابدع ما صنّف سمفونياتهُ التسع التي وصفها فاجنر (هذا العظيم الآخر الذي يمكن

اقتران اسمه باسم بتهوفن) بقوله « ان بتهوفن دوّن بها تاريخ الموسيقى وادمج فيها جميع ألحان العالم » . والسمفونيا في اصطلاح أهلها قطعة موسيقية من صيغة السوناتا على انها ارق بياناً واجمل اكتمالاً ، وذات نبلٍ واقسام تتفاوتُ بين الاسراع والتباطؤ لكلٍّ منها « رويّ » موسيقيّ خاص . وقد وضعت لتوقيع الاوركسترة الكبرى . ومع ان سمفونيات بتهوفن تمثل عواطف ومدركات مختلفة فهي كذلك سجلّ لما كان يفكر فيهِ ويشعر بهِ لدى تدوينها وانشائها

***

أما السمفونيا الاولى فعلاقتها باخواتها واهية . وليست في اصول الفنّ والاصطلاح الموسيقي والمضمون الفناني لتظهر مقدرة مؤلفها . واما السمفونيا الثانية فعلى النقيض . اذ هي تتوهج بحرارة الشباب ونبل العواطف ، وتنشر اوهام الرجاء ورؤى الحياة ، وتجاهر بعقيدة المجد والحب والتضحية . . . فكم من استسلام في ثقة ، وكم من جولةٍ في الطمئنان ، وكم من احكام في ارتباط الانغام وتجاورها ، ويحقّ دُعيت هذه السمفونيا النشودة الشباب الوطان الحالم المستسلم

وفي انتظام العدد تأتي السمفونيا الثالثة المدعوة بسمفونيا البطولة ، وفي حكايتها ما يوضح جانباً من خلق بتهوفن الابيّ ، رغم فقرهِ ورغم حاجتهِ . فقد باشر هذا التلحين بدعوةٍ من برنادوت يومئذٍ سفير فرنسا في النمسا ، وتحت وقع اسم نابوليون الذي كان يكبره الموسيقيّ ويرى فيهِ ممثل العبقرية الاكبر في ذلك العصر ورجل التفوّق الشخصيّ والديمقراطية الخالصة . فجعل لسمفونيتهِ هذا العنوان « الى نابوليون بونابرت . . . من لدويج فان بتهوفن » . وكان بونابرت اذ ذاك قنصلاً اوّل في الجمهورية الفرنساوية الجديدة . وما خطّ بتهوفن آخر سطرٍ منها في سنة ١٨٠٤ حتى ذاع الخبر بأنّ القائد العظيم قد جلس على عرش الملوك وتوّج امبراطوراً على الفرنسيس . والنبيّ الذي كان يعتقد بأن اقدام نابوليون وبطولته نتيجةُ حبهِ لوطنهِ وسعيٌ في سبيل نشر الحرية في العالم — خاب ظنهُ عند تلقي هذا الخبر ، وحنق على أنانية القائد فمزّق عنوان السمفونيا الاول واستبدلهُ بآخر يدلّ على خيبتهِ في الاعجاب بهِ ، فدعاها «سمفونيا البطولة للاحتفاء ، بذكرى رجلٍ عظيم » . ولم تُنشر الاّ سنة ١٨٠٦

وهي تمثلُ في الحانها علاوة جميع الغزاة والفاتحين منذ اول نشأتهم الى تغلبهم في وقائعهم ، الى ارتقائهم ذروة المجد ، بعد مرورهم بكل عذابٍ وكل تكالبٍ مهيئةً للمتفوقين

عجزُ الحاملين وغرورهم . وفيها نبذةٌ تستعملُ « كارش» جنائزي وكأنّ بها شيخٌ بتهوفن ذلك الرجل الذي غزى العالم ، الى لحدهِ قبل ان ينطفئ سراجهُ في منفاهُ البعيد بسبعة عشر عاماً . وهي عميقة الحزن مترعة بالغمّ والحسرات الرائعة الهادئة . فلا يخفُّ وقعها الرهيب إلاّ في النهاية اذ يرتنمُ البطل بالموتِ الى سماء القبطة الدائمة

وقد اهدى السمفونيا الرابعة إلى جولييت جيشار ، احدى النساء اللاتي احبهنّ بحرارةٍ في العواطف وطهرٍ في الخيالِ . فوصف فيها الحبّ المتراكم على نفسهِ المغطومة المحرومة ومقدار ما يشعر بهِ من الحلاوة الرضية والسحر الفتّان . وفي هذه السبيل المتلوية بين مرارة الحرمان ووعود الغرام نصل الى السمفونيا الخامسة ،اشهر اخواتها ومن اروعهنّ جمالاً . وضعها اثر تلقيهِ تلك الضربة الظالمة من يد القدر وتفيهِ عن عالم المحسات والنبرات فقد جثمت نفسهُ عندئذٍ حول وقع القضاء واخذ يتساءل عن غاية الحياة وسبب الالم ، ومضى يتوغلُ من استفهام الى استفهام لعلهُ يعثر على الجواب . . . ومن ثمّ الجوّ الروحانيّ الخفيّ المخيم على تلك الالحان . وهو الذي حمل اهل الباطنية والثيوصوفية في الغرب على ضمّ تلك القطعة الى موسيقاهم فدعوها «سمفونيا الكارما » . والكارما عندهم ضربٌ من القدر [نسخوا معناها كما نسخوا لفظها عن الهندية] بمعنى اتصال العلة بالمعلول والنتائج بالاسباب اتصالاً لا يقبل التوسط والانفصال

وقد وصف فاجنر هذا الطور من فنّ بتهوفن بما يلي : « ثمّ بتهوفن فتلاشى العالمُ حيالهُ هو الذي لم يكن يصلهُ بالارض غير حاسة السمع فيها كان يعيش بعد انقطاعهِ عن كلّ ما عداها . والآن عندما يسير هذا الحالم المأخوذ في شوارع فينا يحدّق فيما حولهُ بعينيهِ الكبيرتين ، ماذا تراهُ يبصر من كلّ ذلك ، هو الذي يقطن ضمن جدران نفسهِ الحافلة بالاحلام والانغام ؟ ايمكن ان يكون في العالم موسيقيٌّ بلا سمع ؟ وهل في وسع انسان ان يتخيّل رسّاماً بلا نظر ومصوّراً بلا اصابع ولا يد ؟ على تلك الحال ودون ان نقلقهُ الآن جلبةُ الحياةِ ، ها هوذا متفرغٌ للانصات إلى ما يدوي ويترنمُ في صميم ذاكرتهِ ، مساجلاً عالماً لا يخلقهُ لهُ احد . عالم يعيش في رجل ! بصرُ الموسيقيّ وسمعهُ يتموّلان الى بصيرةٍ ترى الاشياء من الداخل . فيكنهُ جوهر البرايا و يناجيه ضمير الوجود و يتكشفُ لهُ ضياء الجمال الهاديّ . الآن اصبح ينقهُ سرّ الغاب والنهر والروض والاثير الازرق ، والجماهير المبتهجة ، وغرام العشّاق ، ونشيد الاطيار ، وسوانح الغيوم ، وزئير العاصفة ، ولذاذة الهناء . وفي هذا الوقت وفي هذا الصفاء العجيب تنتشرُ عبقريته في

كل ما يخيل وتتفاعل في كلّ ما يرى - فالقوّة المولّدة عندهُ في أشدّها ، وجميع آلام الحياة ترتدُّ عنها حسيرة بعد إنالتها وقوداً لزكوتها. لقد بسط في هذه السمفونيا الخامسة فكرهُ المكتوم وآلامهُ المبرحة ، وغيظهُ المكظوم ، واحلامهُ المتناثرة بانكسار القلب والقنوط الكئيب . قصيدةٌ وجيعةٌ . بل مرثاةٌ قبل الموت لرجل يحتجنهُ مقدورٌ عنيد ، وكلُّ مقاومة في سبيل الخلاص باطلة . وحياة الرجل تنقضي يوماً بعد يوم بين التمرُّد والاستسلام بيد أنهُ ما فتئت مجاهدة ، وجبهتهُ عالية ، ورجههُ في مصابهِ يقابلُ وجه الشمس ساطعاً . يختم هذه المصنّفات التي لا مثيل لها بنشيد جبّار للمجد والانتصار تكسّر فيهِ رواح الحظ قيودها وتطير سنيةً متبلجةً الى اجواز النعيم ! »

***

اما السمفونيا السادسة فهي النشودة الطبيعة . فما غنّت الاوتار حياتها ، ولا عزفت الآلات او رتلت الحناجر بمثل هذه الانغام الفضية لامتداح جمال الاشياء والبرايا والموجودات . بلاغةٌ وايُّ بلاغة في تلك الجمل المشبعة بالتلوين والرونق والرواء ، وتلك الصور الناطقة بصدق الحياة ، وذلك النور الرحراح ، وتلك العطور الفائحة من مقاطع الانغام في منبسط الآفاق . وذلك السكوت الرضيُّ عند منعطفات الغياض وفي ظلّ الغصون . وذلك المرج الواديع المتراخي الاطراف تحت سيول الالحان المصقولة كالمرايا ، المجلوّة كالاشعة . وإذ يتمُّ وصف الطبيعة يأتي الانسانُ ، رجل الخلاء القويّ الجلود المؤمن ... فتفاجئهُ اهوالُ العاصفة ويشعر بالرعب والوحدة والفزع ، ثم لا يلبث ان تعود اليهِ الطمأنينة فينشد نشيد الشكران

والسمفونيا السابعة مهداةٌ الى الاهة الوزن والتناسق والانسجام الرامزة الى الاحتمال والصبر الباسم عند تراكم الاوصاب. إنك تسمع في الاوركسترا شهيقاً وزفيراً وتكاد تلمس العبرات المتناثرة ، ثم تجمع الالحان في اغنية حزينة تنقبضُ على القلب بمقابض الغصّة والحسرة والجوى . كأنما الانسانية كلها تقاسي دهقاً ونكالاً في تسلقها سبيلاً متعرّجاً شائكاً كلُّ خطوة فيهِ مرحلةُ عذاب . ولكنها لا تفقد الايمان وتظلُّ متطلعة الى الانتصار في النهاية وتتمثل طيفهُ يلمع بعيداً كوميض الرجاء

والسمفونيا الثامنة النشودة البشاشة والرضا . لان بتهوفن يرى ان الرجل الخالص النية الصافي الطوية اذا هو استسلم لطمأنينة النفس يظلُّ بشوشاً راضياً مما لقي من الحياة ومن الناس . وفي هذا التلحين كثير من الحلاوة الرائقة والدلال اللطيف حتى لتخالهُ اغنية

ينشدها الاطفال وهم يقطفون الازهار في صباح ربيع بهيج

وهكذا من الجوبة الى الجوبة ومن تحفة الى تحفة ينتهي بتهوفن الى تعنيفه الفريد الاعظم الذي قال فاجنر على ذكره « ليس منا غروراً وسذاجة ان نعالج تلحين السمفونيا مع علمنا ان منتهى ذلك ارسلهُ بتهوفن في السمفونيا التاسعة التي هي البحر الفيّاح بهولها وجمالها . وكل ما نلحنهُ بعدها فأقاة عمي امام تلاطم الرياح وهدير الامواج »

هذه السمفونيا التاسعة من الاهمية بحيث افرد لها الناقد الموسيقي « ماتيو باروسو » كتاباً تامّاً في ما يزيد على مائتي صفحة . ففي الاوضاع الاصولية وفي بلاغة البيان وعظمة الوحي جميعاً ارتفع بتهوفن الى علوّ شاهق بأذخ لم يدانهِ قط مظهر من أيّ المظاهر الفنية . وأفرغ فيها من المدركات الروحية ونزعة الانسان الى الاتصال بالله وتعرُّف الروح العليا الشاملة حتى ان السامع ليعتريهِ بحران وينتابهُ الخوفُ والرجل كانما هو وقف عند عتبات الغيوب ليطلع على ما وراء هذه الارض من الاسرار الخفية الباهظة . ويخيَّل اليك ان مئات الاصوات والمنشدين والعازفين يتقاطرون جماعات وافراداً من اقطاب الارض السحيقة ليتلاقوا ويتعاونوا على ارسال نشيد واحد عظيم ، هو نشيد الاظمئنان عند الفزع والثقة حيال الرهبة . لان هذه القطعة الخطيرة نشيد الفرح الشريف العالي ، نشيد الاستئناس بالكائنات المجهولة والاستسلام للارواح التقية القادرة

***

هذه صورة ضئيلة من بتهوفن الذي لا تجيد تصويرهُ الاّ مآثرهُ . هو اكبر موسيقيّ في التاريخ وليس ليعلو عليهِ احدٌ وجلّ ما يمكن هو ان يرتفع الى سماء عبقريٍّ آخر او عبقريان اثنان من بعض وجوه فنها . فهو حقيقٌ بكل حفاوة جدير بكل اكرام واعجاب . ويحسبهُ هيبرلت تاين الناقد والمؤرخ الفرنسي ، رابع الاعمدة العظيمة التي تقوم عليها قبّة الفنّ . اما الثلاثة الآخرون فهوميرس اليوناني ، وميكلانجلو الطلياني وشكسبير الانجليزي

هذا هو بتهوفن . فلتعزف المعازف ، ولتنشد الاجواقُ ، وليخطب الخطباء ، وليكتب الكاتبون ، فشيء من ذلك لن ينتهي اليهِ صداهُ عن طريق السمع الانساني . اما روحهُ التي غاصت في تلك الاعماق البعيدة من الالم الاصمّ والحرمان الابكم ثم حلّقت بعبقريتها وفنها في تلك الاجواء العالية فماذا عساها تصنع اذ تشهد مظاهر التكريم والتعظيم ؟

انها تذيب ما تشعر بهِ في ابتسامةٍ صغيرة بطيئة ... ابتسامة العبقريّ الذي خبر الناس والحياة فتألم ، وتحوّل الى منفى نفسهِ فابدع

« مي »